

الفصل السادس

الثقافة العربية
الإسلامية..
الهوية والمنطلقات
والآفاق

تمهيد

لقد تحدث عدد من الباحثين عن مصادر وقوة الثقافة العربية والإسلامية إلا أنني تتبععت أغلب ما كتب - حسب ظني - ووجدت أن الدكتور عبد العزيز التويجري حفظه الله - في كتابه^(١) (الحوار من أجل التعايش) قد أصل لهذا الموضوع تأصيلاً وافياً ومستوعباً جميع عناصر ومفاصل آلية الثقافة وخصائصها، فعرفت أن ما سأكتبه في هذا الميدان سوف يتقاصى دونما كتبه لذلك أجد من المصلحة والضرورة المعرفية أن أدون ما كتبه بحرفيته من كتابه السابق الذكر في هذا البحث تيمناً للفائدة ومحاولة جادة وهادفة لبناء نسيج متكامل حول مفهوم الثقافة والواقع العربي الإسلامي، فجاء نصه على الشكل التالي:

الثقافة هي روح الأمة وعنوان هويتها، وهي من الركائز الأساس في بناء الأمم وفي نهوضها، فلكل أمة ثقافة تستمد منها عناصرها ومقوماتها وخصائصها، وتصطبغ بصياغتها، فتنسب إليها، وكل مجتمع له ثقافته التي يتسم بها، ولكل ثقافة مميزاتها وخصائصها. ويعرف التاريخ الإنساني الثقافة اليونانية، والثقافة الرومانية، والثقافة الهيلينية، والثقافة الهندية، والثقافة المصرية الفرعونية، والثقافة الفارسية.

ولما تسلم العرب زمام القيادة الفكرية والثقافية والعلمية للبشرية في القرن السابع

(١) انظر الكتاب: دار الشروق، القاهرة ١٩٩٨م، ص ٩٧ وما بعدها.

للميلاد، واستمروا في مركزهم المميز إلى القرن الخامس عشر منه، عرف العالم الثقافة العربية الإسلامية في أوج تألقها، حتى إذا ما تراجع العرب والمسلمون عن مقدمة الركب الثقافي العالمين ودب الضعف في كيانهم، وتوقفوا عن الإبداع في ميادين الفكر والعلم والمعرفة الإنسانية، انحصر مد ثقافتهم، وغلب عليهم الجمود والتقليد، وُضعفوا أمام تيارات الثقافة الغربية العاتية التي أثرت بقوة في آدابهم وفنونهم وطرق معيشتهم.

والثقافة الكاملة عريقة في اللغة العربية أصلاً، فهي تعني ثقل النفس والمنطق والفتانة، وفي القاموس المحيط: ثقف ثقفاً وثقافة، صار حاذقاً خفيفاً فطناً، وثقفه تثقيفاً، سواه، وهي تعني تثقيف الرمح، أي تسويته وتقويمه.

واستعملت الثقافة في العصر الحديث للدلالة على الرقي الفكري والأدبي والاجتماعي للأفراد والجماعات، والثقافة ليست مجموعة من الأفكار فحسب، ولكنها نظرية في السلوك بما يرسم طرق الحياة الجميلة إجمالاً، وبما يتمثل فيه الطابع العام الذي ينطبع عليه شعب من الشعوب، وهي الوجوه المتميزة لمقومات الأمة التي تمتاز بها عن غيرها من الجماعات، بما تقوم به من العقائد والقيم واللغة والمبادئ، والسلوك والمقدسات والقوانين والتجارب. وفي الجملة فإن الثقافة هي الكل المركب الذي يتضمن المعارف والعقائد والفنون والأخلاق والقوانين والعادات.

❖ وتمتاز الثقافة بعدة خصائص، منها:

- ١- أنها ظاهرة إنسانية، أي أنها فصل نوعي بين الإنسان وسائر المخلوقات، لأنها تعبير عن إنسانيته، كما أنها وسيلته المثلى للارتقاء مع الآخرين.
- ٢- أنها تحديد لذات الإنسان وعلاقاته مع نظرائه، ومع الطبيعة، ومع ما وراء الطبيعة، من خلال تفاعله معها، وعلاقاته بها، في مختلف مجالات الحياة.
- ٣- أنها قوام الحياة الاجتماعية وظيفية وحركة، فليس من عمل اجتماعي أو فني جمالي أو

فكري يتم إنسانياً خارج دائرتها. وهي التي تيسر للإنسان سبل التفاعل مع محيطه مادة وبشراً ومؤسسات.

٤- أنها عملية إبداعية متجددة، تبدع التجديد والمستقبلي من خلال القرائح التي تمثلها وتعبّر عنها، فالتفاعل مع الواقع تكييفاً أو تجاوزاً نحو المستقبل، من الوظائف الحيوية لها.

٥- أنها إنجاز كمي مستمر تاريخياً، فهي بقدر ما تضيف من الجديد، تحافظ على التراث السابق، وتجدد قيمه الروحية والفكرية والمعنوية، وتوحد معه هوية الجديد روحاً ومساراً ومثلاً، وهذا هو أحد محركات الثقافة الأساس، كما أنه بعد أساس من أبعادها.

● مصادر الثقافة العربية ومقوماتها وخصائصها:

وتتسم الثقافة العربية الإسلامية أساساً بسمتين: سمة الثبوت فيما يتعلق بالمصادرة القطعية، وما جاءت به من عقائد وتشريعات وقيم ومناهج، وسمة التغير فيما يتعلق باجتهادات المسلمين وإبداعاتهم القابلة للصواب والخطأ، وبالتالي الاختلاف، فالجانب القطعي في الثقافة العربية الإسلامية، يتسم بما يتسم به الإسلام من خصائص بصفته ديناً ومنهجاً للحياة.

وتتجلى هذه الخصائص في: العالمية، والشمولية، والوسطية، والواقعية، والموضوعية، والتنوع في الوحدة.

ومصادر الثقافة العربية الإسلامية هي القرآن الكريم والسنة النبوية باعتبارهم المعين الأساس للعلوم الإنسانية واللغة العربية، والمرجع الذي يهتدي به المسلم في بحثه عن الحقائق في مجالات المعرفة والوجود والقيم، وفي ما يتعلق بالفكر والواقع والنظر والسلوك.

والقرآن الكريم يعتبر المصدر الأساس للثقافة العربية الإسلامية. وكما اعتمد المسلمون في نهضتهم الفكرية والعلمية والحضارية على القرآن ودعوته، اعتمدوا كذلك على سنة نبيهم بعد أن جمعوها ودونوها وفصلوا أبوابها، واستثمروها في جهودهم العلمية ومناهجهم المعيشية. وبذلك تكون الثقافة العربية الإسلامية المنطلقة أساساً من القرآن والسنة، ثقافة متفتحة، داعية إلى التعايش والحوار والتفاهم.

ويستتج من هذا كله أن الثقافة العربية الإسلامية تختلف عن الثقافات الأخرى في أن مقومات كل منها تختلف عن الأخرى؛ فالثقافة العربية الإسلامية إسلامية المصدر، تستمد كيائها من القرآن الكريم والسنة النبوية واللغة العربية، واجتهادات العلماء، بينما نجد الثقافة الغربية على وجه الإجمال، تستمد مصادرها من الفكر اليوناني، والقانون الروماني، واللغة اللاتينية، وتفسيرات المسيحية التي وصلتها.

ولقد وازنت الثقافة العربية الإسلامية بين جوانب العقل، وجوانب الوجدان، ورفضت إعلاء المعتزلة للعقل، وإعلاء الصوفية للوجدان، وحافظت على المفهوم المتكامل الجامع. كذلك فقد حرصت الثقافة العربية الإسلامية على ارتباطها بالمصدر الأول من القرآن والسنة على مدى مراحلها. ولم يقع الانفصام بين الجانبين في الثقافة العربية الإسلامية، إلا في هذا العصر، وهذا الانفصام هو أحد عوامل ضعفها اليوم.

والثقافة العربية الإسلامية عربية في لغتها، إسلامية في جذورها، إنسانية في أهدافها، وهي، كشأن كل ثقافة، تتكون من مقومات أساس: فكرية وروحية، أهمها العقيدة، وهي الإسلام، واللغة العربية وآدابها والتاريخ والتراث، ووحدة العقلية، والمزاج النفسي. وقد تأكد إنه لا يمكن لآية ثقافة من الثقافات أن تنمو، إلا إذا كانت ذات صلة بدين من الأديان، فالدين هو الذي يكسب الحياة الاجتماعية معناها، ويمدها بالإطار الذي تصوغ فيه اتجاهاتها وآمالها.

واللغة العربية أساس من مقومات الثقافة العربية الإسلامية، ذلك أن العربية ليست لغة أداة فحسب، ولكنها لغة فكر أساساً، وحتى الشعوب والأمم التي انضوت تحت لواء الإسلام، وإن كانت احتفظت بلغاتها الوطنية، فإنها اتخذت من اللغة العربية وسيلة للارتقاء الثقافي والفكري، وأدخلت الحروف العربية إلى لغاتها فصارت تكتب بها.

ومن أقوى مقومات الثقافة العربية الإسلامية الإيمان بالآمة، والثقة فيها. وهذا الإيمان لا بد أن يستمد قوته من الإيمان بالله، لأن الإيمان بالله هو الأصل، وهو ينبوع الذي ينبغي أن تبنى عليه العقيدة، ومن أوجه هذه العقيدة أن يؤمن الإنسان بآمته، وأن يؤمن العربي والمسلم بأن آمته خير أمة أخرجت للناس. والإيمان في الإسلام، كما في الأديان السماوية - التي جاء بها الرسل - قد دعا إلى المحبة والإخاء، وهو في الإسلام بصفة خاصة، يعلم المساواة بين الناس، والعطاء قبل الأخذ. ولذلك فإن التربية الدينية يجب أن تكون أساساً للثقافة العربية الإسلامية.

والثقافة العربية الإسلامية ليست مجردة، فنحن لا نكتفي فيها بالبحث عن أصول الأشياء ولا عن حقائقها وحدها، ولا نبحث فيها بحثاً مجرداً، لأن الثقافة جزء من الإنسان، فإذا كان العقل يغذيها، فإنها لا تنبع من العقل وحده، وإنما تنبع في النفس البشرية، وتنبع في الأحاسيس وتنبع في الذوق وتنبع أكثر من ذلك في الوجدان، بل هي أيضاً تتصل بالجانب الأساس الذي ميّز الله به الإنسان عن الحيوان، أل وهو الضمير. والضمير أعمق وأروع من العقل. والضمير الإسلامي هو منبع الثقافة العربية الإسلامية. ولذلك هي ثقافة الوجدان الإنساني.

والثقافة العربية هي ثقافة الأمة العربية، التي هي أمة الإسلام الذي منه اكتسبت صيغتها، وحملت صفتها، واستمدت طبيعتها. فلم يكن لهذه الأمة كيان قائم الذات قبل

الإسلام، وإنما كانت قبائل وعشائر لا تجمعها عقيدة، ولا يوحدتها إيمان برسالة سماوية، حتى إذا بعث الله رسوله محمداً ﷺ بالإسلام، كان هذا الدين هو الرسالة الخالدة للعرب.

ولئن كانت الثقافة العربية إسلامية الروح سماوية الرسالة، فإنها مع ذلك ثقافة استوعبت كل الأمم والشعوب التي انضوت تحت لواء الأمة العربية الإسلامية، ووسعت كل الثقافات التي تعايشت معها، فصارت بذلك ثقافة العرب المسلمين، وثقافة العرب النصارى واليهود، وثقافة كل أهل الأديان وطوائف الملل والنحل التي اندمجت في الكيان العربي الإسلامي، وعاشت في ظل الدولة العربية الإسلامية عبر الأزمنة والعصور.

إن انتشار الثقافة العربية الإسلامية في مختلف البلاد التي دخلها الإسلام، جعل كثيراً من معالم الثقافات المحلية القائمة تتكيف مع مقومات الثقافة العربية الإسلامية؛ فأصبحت العادات والتقاليد والأعراف تنسجم في غالب الأحيان مع ثوابت الثقافة العربية الإسلامية، حتى ولو اختلفت فيما بينها في الممارسة والتطبيق، على أن هذا الاختلاف لا يصل إلى مجال العقائد والقيم والمقاصد، كما هو الشأن مع الثقافات غير الإسلامية القديمة والحديثة.

وبذلك تكون أهم خاصية تمتاز بها الثقافة العربية، أنها امتزجت بالثقافات الأخرى التي كانت سائدة في عهود الإسلام الأولى، وتفتحت لعتاء الأجناس والأقوام وأهل الديانات والعقائد التي تعايشت مع المجتمع العربي الإسلامي، فصارت بذلك ثقافة غنية المحتوى، متعددة الروافد، متنوعة المصادر، ولكنها ذات روح واحدة، وهوية مميزة متفردة.

كذلك فإن من أهم خصائص الثقافة العربية الإسلامية الانفتاح على الثقافات الشرقية والغربية، مع المحافظة على الأصول الثابتة من دون تجاوزها. وقد واجهت الثقافة العربية

الإسلامية عديداً من التحديات في تاريخها الطويل، وهي تحديات المذاهب الفلسفية والأديان والدعوات المختلفة التي كان يزخر بها العالم إبان بعث الإسلام، من بوذية، ومجوسية، ووثنية، وهلينية، وهندية، وفارسية، وقد تحولت هذه المذاهب والفلسفات إلى قوى غازية، وحاولت جميعها إثارة الشبهات وتحريف القيم الأساس، والإضرار بالأمّة والدول العربية الإسلامية والفكر جميعاً. ولكن الثقافة العربية الإسلامية انتصرت على هذه التحديات في الماضي بفضل مقوماتها الصلبة وخصائصها المتفردة.

ولقد أكسب هذا الامتزاج والتلاقح الثقافة العربية الإسلامية ثراءً وغنى، وقوةً ومناعة، وهي خاصية فريدة ومتميزة تكاد أن تكون فريدة في التاريخ الثقافي الإنساني. ويأتي مصدر هذا التنوع الذي يطبع الثقافة العربية الإسلامية من طبيعة المبادئ التي تقوم عليها والمستمدة أساساً من جوهر الرسالة الإسلامية التي من خصائصها الترغيب في طلب العلم والحث على النظر والتفكير، والحض على التماس الحكمة من أي وعاء أو مصدر كانت، والدعوة إلى التعارف بين الأمم والشعوب بما يقتضيه ذلك من تقارب بكل معانيه، إلى جانب النهي عن الإكراه في الدين، وهو المبدأ القرآني الذي يمكن أن يكون قاعدة للتعايش الثقافي والفكري في إطار وحدة الأصل الإنساني، وهو المبدأ الأصيل الذي يختزل كل معاني حرية الفكر التي هي نقيض فوضى الفكر المؤدية، وبصورة تلقائية، إلى بؤس الفكر المغضي بدوره إلى بؤس الثقافة.

● تفاعل الثقافة العربية مع الثقافات الأخرى:

لقد تفاعلت الثقافة العربية الإسلامية مع ثقافات الأمم والشعوب التي عرفت الإسلام، والتي اتصل بها المسلمون أو انضوت تحت لوائه. وكان هذا التفاعل الثقافي المرن والمتفتح، أهم عنصر من عناصر القوة في الثقافة العربية الإسلامية، ودافعاً نحو

الانفتاح على الثقافات وهضمها واستيعابها وتكييفها مع روح الثقافة العربية الإسلامية، كما كان هذا العنصر حافزاً إلى فهم طبائع الأمم والشعوب والغوص في أغوارها والتماس الحكمة من حضاراتها، تحقيقاً لمبدأ التعارف القرآني، وتأكيداً لرسوخ الهوية الثقافية الحضارية العربية الإسلامية.

ولقد كان تفاعل الثقافة العربية الإسلامية مع الثقافات الأخرى، وسيلة لتحرير الشعوب والأمم من الخرافات والوثنيات والعصبية والمظالم، وطريقاً إلى إيقاظ الوعي والوجدان وتحرير العقل والنفس، حتى استقامت هذه على كلمة الله الحق بالتوحيد، واستمدت من القرآن الكريم قيمها الأساس: عبادات ومعاملات وأخلاقاً، ونظام مجتمع، ومنهج حياة جامعة بين العقل والقلب، والروح والجسد، والدين والعلم، والدينا والآخرة.

وقد نتج عن تفاعل الثقافة العربية الإسلامية مع ثقافات الأمم والشعوب الأخرى، أن صارت هذه الثقافة متعددة المشارب متنوعة الفروع، وكان ذلك مصدراً آخر من مصادر قوة التفاعل في الثقافة العربية الإسلامية. وكان التفاعل الثقافي في حقيقة الأمر خاصية الحضارة الإسلامية، إذ لم يعرف التاريخ الإنساني في مختلف عصوره، أن ثقافة منتصرة وغالبة قبلت التفاعل مع الثقافات المنهزمة، وأقبلت على التواصل مع الحضارات المنهارة، وأبقت على مصادرها وآثارها، وتسامحت مع الأديان والعقائد التي نبعت منها.

ولقد فتح تفاعل الثقافة العربية الإسلامية مع الثقافات الأخرى، الأبواب أمامها للاغتراف من منابع هذه الثقافات التي كانت مراكزها في الشام ومصر وفارس، ومنبعها الأصلي في بلاد اليونان. وكانت هذه البيئة تربة خصبة تستطيع إذا بذرت فيها البذور الصالحة أن تنبت صفوة من الرجال والباحثين، ومدارس ثقافية وفكرية تغذي العقل

وتثري الوجدان. ثم جاء الإسلام فأمد هذه التربة الخصبة ببذور صالحة، وغذتها روح الإسلام بينوع لا ينضب من الفكر والمعرفة، فظهر في ذلك الجو المزدهر مجموعات من العلماء والفلاسفة الممتازين الذين لا يعدون بالعشرات بل بالمئات. نذن المدارس لما تفاعلت معها الثقافة العربية الإسلامية، قدمت التربة التي استطاع المسلمون عليها أن ينبتوا ثقافة جديدة، وفلسفة، وعلومًا دينية، وطباً ورياضة وغيرها، وأن يحملوا منها علومًا مزدهرة عميقة الجذور.

ولقد كانت قدرة الثقافة العربية الإسلامية على هذا الضرب من التفاعل عاملاً مساعداً على انتشارها وامتداد فروعها وتعميق جذورها في بيئات مختلفة ومجتمعات متعددة. واتخذ هذا التفاعل أشكالاً وصوراً شتى تبلورت جميعها في أنماط من السلوك، ومدارس من التفكير، وأساليب من التعبير هي المظهر العام للثقافة العربية الإسلامية، وهي النتيجة الطبيعية لتفاعل الثقافة العربية الإسلامية مع الثقافات الأخرى على هذا النحو من المرونة والتسامح والانفتاح، مع التثبت بالأصول والجذور، وفي إطار الهوية الحضارية الثقافية المميزة.

● تأثير الثقافة العربية في النهضة الأوربية:

في بحثه عن أثر الثقافة الإسلامية في الغرب المسيحي، يقول الكاتب ت. كولويونج (T.X. young) «إن الدين الثقافي الإسلامي العظيم الذي ندين به للإسلام منذ أن كنا نحن المسيحيين، داخل هذه الألف سنة، نساfer إلى العواصم الإسلامية، وإلى المعلمين المسلمين ندرس عليهم الفنون والعلوم وفلسفة الحياة الإنسانية، يجب التذكير به دائماً، وفي جملة ذلك تراثنا الكلاسيكي الذي قام الإسلام على رعايته خير قيام، حتى استطاعت أوروبا مرة أخرى، أن تفهمه وترعاه، كل هذا يجب أن يمازج الروح التي نتجه بها - نحن المسيحيين - نحو الإسلام، نحمل إليه هدايانا الثقافية الروحية، فلنذهب إليه - إذن - في شعور بالمساواة نؤدي

إليه الدين القدين، ولن نتجاوز حدود العدالة إذا نحن أدّينا ما علينا بربحه. ولكننا سنكون مسيحيين حقاً إذا نحن تناسينا شروط التبادل، وأعطينا في حب واعتراف بالجميل».

لقد قامت الثقافة العربية الإسلامية بدورها الطبيعي خير قيام في بناء النهضة العلمية العالمية، وقد نقل العلماء العرب والمسلمون التراث الإغريقي وغيره من ألوان التراث العلمي الذي تقدم عليهم في التاريخ، نقلوه إلى اللغة العربية، التي كانت لغة علم وثقافة، وأثر العلماء العرب والمسلمون في النهضة الأوروبية، وكان طابع الثقافة العربية الإسلامية غالباً وواضحاً ومؤثراً في عدد من المجالات العلمية والفكرية والثقافية، مثل ابتكار نظام الترقيم والصفر والنظام العشري، ونظرية التطور قبل «داروين» بمئات السنين، والدورة الدموية الصغرى قبل «هارفي» بأربعة قرون، والجاذبية والعلاقة بين الثقل والسرعة والمسافة قبل «نيوتن» بقرون متطاولة، وقياس سرعة الضوء وتقدير زوايا الانعكاس والانكسار، وتقدير محيط الأرض، وتحديد أبعاد الأجرام السماوية، وابتكار الآلات الفلكية، واكتشاف أعالي البحار، ووضع أسس علم كيميائية.

ويمكن القول إن الثقافة العربية الإسلامية كانت واسطة العقد بين العلوم والثقافات القديمة وبين النهضة الأوروبية؛ فالفكر العربية الإسلامي، والثقافة العربية الإسلامية، سلسلة متصلة الحلقات، امتدت من الحضارات القديمة، من مصرية، وآشورية، وبابلية، وصينية، إلى حضارة الإغريق والإسكندرية، إلى العصر الإسلامي الذي تأثر علماءه بمن تقدمهم، وأثروا بدورهم فيمن لحقهم من اللغة اللاتينية واللغات الأوروبية.

لقد حافظت الثقافة العربية الإسلامية على الثقافة اليونانية من الضياع، إذا لولا المثقفون والعلماء العرب، لما وصلت إلى أيدي الناس مؤلفات يونانية كثيرة مفقودة في أصلها اليوناني ومحفوظة بالعربية. ولقد ظل الغرب يشغل على الثقافة العربي حتى بعد أن تقلص ظلها في الأندلس بجيلين أو أكثر حتى وصل إلى العصور الحديثة.

وظلت الثقافة العربية الإسلامية تستهوي الكثيرين من أبناء العالم الغربي، إذ لم تتوقف الترجمة عن العربية في عصر النهضة وما بعد عصر النهضة، رغم الاتصال المباشر بالعالم اليوناني والحضارة اليونانية اعتباراً من اللاتينية من دون الاستعانة بالترجمات العربية. فالثقافة العربية لها قيمتها وشخصيتها، فقد أنتجت الكثير مما لم تستطيع الثقافة اليونانية إنتاجه في الحقول كافة: إضافات وتعليقات وابتكارات واكتشافات عربية لم يعرفها اليونان.

إن حركة التنقل من الثقافة العربية الإسلامية التي خرجت بها أوروبا من عصورها المتوسطة المظلمة إلى عصورها الحديثة المتنورة، لم تقتصر على «نقل» المعارف القديمة من يونانية وهندية وبابلية ومصرية، من كتب باللغة العربية إلى اللغة اللاتينية فحسب، إن أوروبا المسيحية قد «نقلت» أيضاً معارف عربية خالصة، كما نقلت أنماطاً من الحضارة الإسلامية ومن الإيمان الإسلامي إلى حياتها العامة وحياتها الخاصة. ولو أن الكنيسة الكاثوليكية لم تضع ثقلها إلى جانب الفرنجة في معركة تور سنة ١١٤ هـ (٧٣٢م)، لعمت الحضارة الإسلامية والثقافة العربية الإسلامية في أوروبا منذ ذلك الزمن الباكر، ولوفرت الكنيسة الكاثوليكية على العالم نزاعاً طويلاً وشقاء مريراً.

لقد انتشرت الثقافة العربية الإسلامية في العالم الغربي، ونهل علماء أوروبا من المصادر العربية الأصلية، ووجدوا تراثها تراثاً علمياً عظيماً، فاشتغلوا بدراسته وتحليله، ولقد كان العرب والمسلمون يمثلون العلم الحديث بكل معنى الكلمة، كانوا رواداً في المناهج العلمية الحديثة، وقد اكتسب المثقفون والعلماء في أوروبا من الثقافة العربية الإسلامية، أكثر من مجرد المعلومات إنهم اكتسبوا العقلية العلمية ذاتها بكل طابعها التجريبي والاستقرائي، بحيث وجد الأوروبيون في التراث العربي الإسلامي وفي الثقافة العربية الإسلامية ضالته المنسودة، فعكفوا على نشره.

إن الانبهار بحجم تأثير الثقافة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية، وفي الثقافة والعلوم الأوروبيين، جعل مفكرة عالمة ألمانية تصدع بهذه الحقيقة بقولها: «إن تلك الحضارة الزاهرة التي غمرت بأشعتها أوروبا عدة قرون، تجعلنا نعجب أشد العجب؛ إذ هي لم تكن امتداداً حضارياً لبقايا حضارات غابرة، أو لهياكل حضارية محلية على قدرة من الأهمية، أو أخذاً لنمط حضاري موجود، أو تقليداً ينسج على منواله المعهود، كما نعرف في الأقطار الأخرى مهد الحضارات في الشرق. إن العرب بثقافتهم هم الذين أبدعوا هذه الروعة الحضارية إبداعاً».

وبينما كانت أوروبا ترتع في غياهب العصور الوسطى، كانت الحضارة الإسلامية (التي هي محضن الثقافة العربية الإسلامية) في أوج ازدهارها، لقد أسهم الإسلام كثيراً في تقدم العلم والطب والفلسفة. وقال (ويل ديورانت Will Durant) في كتابه «عصر الإيمان» (The Age of Faith): «إن المسلمين قد ساهموا مساهمة فعالة في كل المجالات، وكان (ابن سينا) من أكبر العلماء في الطب، والرازي أعظم الأطباء، و(البيروني) أعظم الجغرافيين، و(ابن الهيثم) أكبر علماء البصريات، و(ابن جبير) أشهر الكيميائيين». وكان العرب رواداً في التربية والتعليم. وقاد (دورانت) في هذه الشأن أيضاً: «عندما تقدم (روجر بيكو Reger Bacon) بنظريته في أوروبا بعد ٥٠٠ عام من (ابن جبير)، قال إنه مدين بعلمه إلى المغاربة في إسبانيا الذين أخذوا علمهم من المسلمين في الشرق. وعندما ظهر النوابغ والعلماء في عصر النهضة الأوروبية، فإن نبوغهم وتقدمهم كانا راجعين إلى أنهم وقفوا على أكتاف العمالق من العالم الإسلامي».

● مصادر قوة الثقافة العربية:

في إطار هذا المنظور الرحب الواسع، يمكن أن نقول: إن الثقافة العربية الإسلامية،

ثقافة القوة والبأس، لا ثقافة الضعف والبؤس. والقوة تؤدي إلى النظام والانسجام والتناغم، في حين أن الضعف يتسبب في الفوضى والصراع والتصادم..

ومن ثمة كانت الثقافة العربية الإسلامية، ثقافة الحوار والتفاهم والتواصل، ولم تكن قد لتنأى عن التلاقح والتمازج والتداخل. في حين كانت جميع الثقافات التي تنتسب إلى الأمم والشعوب القديمة، تنزع نحو الانعزال والانغلاق، وتصطبغ بصبغة العرقية والعنصرية، ولم تكن على الإجمال، ثقافة متفتحة، قابلة للأخذ والعطاء.

إن الثقافة قوة فاعلة من قوى البناء الحضاري في مدلوله الشامل، الفلسفي والأدبي، السياسي والاجتماعي، الاقتصادي والتنموي.

والثقافة طاقة للإبداع في شتى حقول النشاط الإنساني، ثم إن الثقافة البانية الهادفة الفاعلة، لا بد وأن تكون في خدمة السياسات التي تتجه نحو ترقية وجدان الإنسان، وتهذيب روحه، وصقل مواهبه، وتوظيف طاقاته وممتلكاته في البناء والتعمير، والتي تعمل من أجل تحقيق الرقي والتقدم والرخاء والازدهار.

ولا يتأتى للثقافة أن تمتلك القوة والمناعة، وتنهض بهذه المسؤولية على الوجه المرغوب فيه، إلا إذا توافرت لها ثلاثة شروط تعدُّ من مصادر القوة في الثقافة العربية الإسلامية، ومن أسس النهضة الثقافية، ومن العناصر الأساسية لبنية الثقافة العربية الإسلامية:

■ أولاً: أن تكون الثقافة ذات مركّزات تستند إليها ومبادئ تقوم عليها، فلا تكون ثقافة ميتة الجذور، لا هوية لها تعرف بها، ولا خصائص لديها تميزها.

■ ثانياً: أن تكون الثقافة ذات أفق مفتوح ورؤية شاملة، لها قابلية للتفاعل مع الثقافات الأخرى، ولها استعداد كامن في أصولها للتعامل مع الثقافات الإنسانية من هذه المنطلقات.

■ ثالثاً: أن تكون الثقافة ذات منحى إنساني تتخطى به المجال المحلي أو الإقليمي، إلى الآفاق العالمية، من دون أن ينال ذلك من خصوصياتها، أو يؤثر في طبيعتها، فتكون بذلك ثقافة تواصل بشري، وتجاوز إنساني، وثقافة تفاهم تؤدي إلى التعايش بين الأمم، وثقافة تعاون يحقق التضامن بين الشعوب.

بتوافر هذه الشروط، لا تكتسب الثقافة العربية الإسلامية القوة والمناعة فحسب، ولكنها تكتسب إلى ذلك القدرة على السمو والرقى، لأن الثقافة القوية القادرة على البناء، هي تلك الثقافة التي تسمو بالإنسان إلى المقام الأرفع والمكانة الأسمى. وكما يقول الرئيس عزّت بيجوفيتس، فإن حامل الثقافة هو الإنسان، وحامل الحضارة هو المجتمع، ومعنى الثقافة تميل إلى التقليل من احتياجات الإنسان، أو الحد من درجة إشباعها، وبهذه الطريقة توسع في آفاق الحرية الداخلية للإنسان. وتلك هي القوة الروحية والنفسية والعقلية التي تمكن الإنسان أن يمارس وظائفه في الحياة على النحو الذي يرضى خالقه أولاً، ثم يرضي نفسه بعد ذلك.

إن إبراز هذه السمات والخصائص التي تنفرد بها الثقافة العربية الإسلامية، أمر نراه ضرورياً في سياق الحديث عن الثقافة العربية والثقافات الأخرى، سواء أكان القصد من هذا الموضوع هو المقارنة التي تعني بيان أوجه الأشباه والنظائر، وكشف نواحي الالتقاء والافتراق، أم رسم حدود العلاقة التي يفترض أن تقوم بين الثقافة العربية الإسلامية، وبين الثقافات الأخرى.

وفي كلتا الحالتين، فإن المنطلقات الأساس في البحث عن مصادر قوة والثقافة العربية الإسلامية، وعن خصائصها، ووظائفها، ورسالتها وأهدافها، ومظاهرها، تستند إلى ثلاث أسس:

الأساس الأول: إن الثقافة العربية الإسلامية في مبادئها وأصولها، وفي مفاهيمها

ودلائها، تعبر عن جوهر رسالة الإسلام السمحة، فهي بذلك ثقافة إنسانية بالمعنى العميق، تنفتح على ثقافات الأمم والشعوب، فتتلاقح وتتمازج وتتصاهر معها، وإن مصدر ثرائها وقوتها ومناعتها يكمن في هذه الخاصية التي لا يعرف التاريخ الثقافي البشري نظيراً لها.

* ولقد حدد المفكر (مالك بن نبي) أربع دعائم تقوم عليها الثقافة العربية الإسلامية، هي:

أ- الدستور الأخلاقي.

ب- الذوق الجمالي.

ج- المنطق العلمي.

د- الصناعة أو (التقنية).

والثقافة التي يعرفها الغربيون بصورة عامة بأنها (فلسفة الإنسان)، يحدها (مالك بن نبي) بالقول إنها: «مجموعة من الصفات الخلفية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأس مال أولى في الوسط الذي ولد فيه». أي أنها المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته. وعلى هذا الأساس تكون الثقافة (نظرية في السلوك) أكثر من أن تكون (نظرية في المعرفة)، وفي هذا التحديد يكمن الفرق بين الثقافة والعلم، فالثقافة سلوك، أما العلم فمعرفة.

والثقافة بهذا المعنى وثيقة الصلة بالتاريخ والتربية، فليس ثمة تاريخ لأمة بلا ثقافة، والشعب الذي فقد ثقافته قد فقد حتماً تاريخه، إذ هي الوسط الذي لا تتكون فيه خصائص المجتمع التاريخية من عبقرية وتقاليد وأذواق ومشاعر. والثقافة من ناحية ثانية، تتحدر بمضمونها التربوي من حيث أنها «دستور تتطلبه الحياة العامة بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي».

وتنطوي هذه الخاصية المتفردة على عناصر القوة في الثقافة العربية الإسلامية، وعلى مصادر الحيوية والتدفق فيها، وعلى ما يمكن أن نعبر عنه بالقدرات الذاتية التي تجعل منها ثقافة قوية متغلغلة في البيئة والوسط، فاعلة ومؤثرة في الفرد والمجتمع.

الأساس الثاني: إن الثقافة العربية الإسلامية، في عمقها وجوهرها، ثقافة تدافع، لا ثقافة تصارع، فالتدافع هو سنة الحياة، أما التصارع، أو الصراع، فهو مفهوم يعود إلى التراث الإغريقي والروماني والهليني الذي عرف أساطير صراع الآلهة، ولا يعبر عن الطبيعة البشرية والفطرة الإنسانية، وهذا أيضاً منبع من منابع القوة والحيوية والقدرة على الحضور في ساحة التنافس الثقافي، لأن التدافع الثقافي مصدر قوة، في حين أن التصارع، أو الصراع الثقافي، يؤدي إلى إضعاف الذات، والنيل من القدرات والملكات، ويسير في اتجاه معاكس للغايات الإنسانية النبيلة.

وليس عزوف الثقافة العربية الإسلامية عن الصراع، ضعفاً في تركيبها أو خللاً في عناصرها الأساس، ولكنه عنصر تحضر فيها، وعلامة نضج ووعي، ومظهر صحة. ومن المؤكد أن خاصية النزوع نحو التدافع بدلاً عن التصارع، هي التي مكنت الثقافة العربية الإسلامية من الصمود أمام الأعاصير الثقافية والفكرية والمذهبية التي واجهتها عبر العصور.

الأساس الثالث: إن كثيراً من جوانب الثقافة العربية الإسلامية، في أوضاعها ومستوياتها ومظاهرها وصورها الحالية، لا تعبر عن هوية المجتمع العربي الإسلامي، لأنها جوانب يعترها الضعف من كل النواحي، ولأن هناك تفاوتاً ظاهراً بين منابع وبين البدائع، ونقص ذلك أن أساس هذه الجوانب ليس مستمداً في مجمله من منابع الأصلية، وأن هذه الظاهرة هي مصدر الضعف العام في الثقافة العربية الإسلامية في المرحلة التاريخية الراهنة.

إن الثقافة العربية الإسلامية هي ثقافة اجتهاد وإبداع مستمرين في إطار الضوابط الشرعية والقيم الخلقية التي تميز حضارة الإسلام، وتعبّر عن هوية الأمة. لذلك فإن عطاء هذه الثقافة، عطاء متجدد بتجدد الأحوال واختلاف القضايا والأفعال.

ولا ينبغي أن نخدع أنفسنا فنحسب أن الثقافة هي إبداع وابتكار في المقام الأول، وأن قوة الإبداع تنبع من عقل الإنسان المثقف المبدع ومن خياله ووجدانه، وأن لا صلة لذلك كله بالقيم والمقومات. إن هذا وهم من جملة الأوهام التي تسود حياتنا العقلية وأجواءنا الثقافية. إن الثقافة العربية الإسلامية لن تقوى على مواجهة الأخطار التي تهددها والتحديات التي تواجهها، إلا إذا استمدت قوتها من جذورها وأصولها، ومن قيم الأمة ومقوماتها، وليس في ذلك أي نوع من الحجر على الإبداع، أو القيد على التفكير والتعبير.

● طبيعة العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الأخرى:

إن العصر الذي نعيش فيه هو عصر الهيمنة الثقافية التي هي جزء من الهيمنة الاقتصادية والسيطرة على رأس المال والأسواق، وعلى بنية مصادر التمويل الدولية. وفي هذا الجو تتعاظم أهمية العلاقات الثقافية الدولية، بقدر تعاظم الصراع حول الاتصالات الثقافية.

ويذهب الكاتب الأمريكي (هربرت شيلر) (Herbert I. schiller) في كتابه «الاتصال والهيمنة الثقافية» إلى أن الامبريالية الثقافية تنمو في نظام عالمي ينطوي على سوق واحدة، ومن الضروري أن يتطور قطاع الاتصالات الثقافية في النظام العالمي بما يتسق مع أهداف النظام العام وغاياته، وبما ييسر تحقيقها. ومن ثم فإن الناتج الإعلامي والثقافي تحدده بقدر كبير، إن لم يكن كلية، ضرورات السوق ذاتها التي تحكم ما ينتجه

النظام الشامل من سلع وخدمات. ويخلص الكاتب إلى القول: «إن مفهوم الامبريالية الثقافية هي جماع العمليات التي تستخدم لإدخال مجتمع ما إلى النظام العالمي الحديث، ولاستئلاته الطبقة المهيمنة فيه الضغط عليها وإجبارها ورشوتها أحياناً كي تشكل المؤسسات الاجتماعية في أنساق مع قيم المركز المهيمن في النظام الرأسمالي، أو حتى الترويج لها».

وهذا الذي ذهب إليه الكاتب الأمريكي، يؤكد بصورة قاطعة على أن اتجاهات النظام العالمي الجديد المفروض على المجتمع الدولي، في مجال الثقافة، تسير نحو طمس الهويات الثقافية، ومحو السمات الحضارية للأمم والشعوب، وفي ذلك -وكما يظهر بداهة- خرق سافر لمبادئ القانون الدولي، كما لا نحتاج أن نقول، لأن كل المواثيق والاتفاقات والأوافق والإعلانات الدولية تؤكد على احترام الهويات الثقافية للأمم والشعوب في جميع الأحوال.

وأمام هذا الوضع المتداخل والمعقد، يتعين على الثقافة العربية الإسلامية أن تحدد مواقعها، وأن توفق أوضاعها، وهذا يتطلب الخروج على العالم بمواقف محددة تعبر عن حقائق الأمور في العالم العربي الإسلامي أصدق التعبير من جهة، وترجم أشواق الأمة وأحلامها وآمالها بكل أمانة، من جهة ثانية.

والمسألة هنا ذات بعدين: البعد الثقافي، والبعد المجتمعي (السياسي والاقتصادي والاجتماعي)، على النحو الذي تتداخل فيه المسؤوليات والمهام التي ينبغي القيام بها للتغيير وإعادة البناء.

إن الثقافة هي مرآة المجتمع، تعكس صورة الحياة العامة في جميع مرافقها وأحوالها وأوضاعها. ومن الحق والصدق مع النفس أن نقول: إن الثقافة العربية والإسلامية، في ظل الظروف الحالية التي يمر بها الوطن العربي والعالم الإسلامي، تستمد ضعفها من

ضعف المجتمعات العربية الإسلامية، وتكتسب ملاحظها الباهتة - وهذه حقيقة لا مناص لنا من الاعتراف بها - من الحالة العامة التي تسود البلدان العربية الإسلامية، ولذلك فهذه الثقافة غير قادرة على المنافسة في سوق العرض والطلب الدولي، على مستوى الإبداع والابتكار، وعلى مستوى التجديد والاجتهاد. ومرد ذلك كله إلى ما يطبع الحياة العامة في الوطن العربي والعالم الإسلامي، وفي الغالب الأعم، من ضعف، ومن تفريط، ومن إهمال شديد للأخذ بأسباب التقدم الحقيقي في المجالات كافة.

وما دامت جوانب كثير من الثقافة السائدة في المجتمعات العربية الإسلامية اليوم غير منسجمة مع مقومات الأمة وقيمها الأساس، وما دامت لا تعبر عن حقائق الرسالة الحضارية التي تحملها، فإن هذه الثقافة ستظل في وضع غير قابل للمنافسة التي تقتضي التكافؤ في عناصر القوة. وإن كان هذا الوضع لا يعني بحال من الأحوال بقاءها جامدة لا تتحرك، وعاجزة لا تشارك في ميدان التنافس الثقافي العالمي.

إننا نعيش عصراً أرادت القوى العظمى فيه أن يكون عصر الصراع في كل مجالات الحياة. ولكننا على الرغم من ذلك لا نؤمن بالصراع، وإنما نؤمن بالتدافع الحضاري. وإذا ووجهنا بالصراع، تصدينا له من منطلق قيمنا ومفاهيمنا، وبدافع الحرص على مصالحنا. ونحن موقنون تمام اليقين أن الصراع الذي يروج له اليوم في بعض الدوائر الغربية، هو صراع بلا منطق، وأنه صراع القوة مع الضعف، والغنى مع الفقر، تستخدم في أدوات ووسائل وإمكانات لا يخضع اختيارها إلى قيم أخلاقية، وإنما يخضع إلى قانون الغاب، إن جاز أن يكون للغاب قانون. وهو بذلك صراع محموم يكتسح أمامه كل الحواجز.

ونحن نؤمن أيضاً، إيماناً عميقاً بأن قوة الثقافة العربية الإسلامية هي في جذورها وأصولها وعناصرها الأساس المكونة لها. وفي الوقت نفسه نعتقد أن هذه القوة المعنوية، هي جوهر الحضارة، إذ لا تقوم حضارة إلا على أساس القوة المعنوية الكامنة في النفس

الإنسانية والتي يعبر عنها الفكر المبدع القادر على التغيير والبناء، وعلى التعمير والنماء، ولا بد أن تقوم علاقة الثقافة العربية الإسلامية بالثقافات الأخرى على هذه القاعدة الصلبة.

إن من الحقائق التي علينا أن نجلوها دائماً - لأنها تتعرض لضروب من التغطية والتعمية والتزييف - أن ضعف الثقافة العربية الإسلامية في هذا العصر، لم يصل إلى الجذور. ولذلك فإن هذه الثقافة قادرة على العطاء، وتستطيع المواجهة مع الثقافات الأخرى، لا في ساحة النزال والعراك والصراع، وإنما في ساحة الحوار والتواصل والتدافع. فهي ثقافة تملك مقومات البقاء والتأثير والنفوذ هذه من خلال القيم التي تحملها، والمبادئ التي تقوم عليها، والرسالة التي تنهض بها. ومن ثم فإن الثقافة العربية الإسلامية لا بد وأن تقيم علاقتها مع الثقافات الأخرى المعاصرة على أساس قدر معقول من الندية والتكافؤ، إن لم يكن في الشكل والمظهر، ففي العمق والجوهر.

إن حوار الثقافات لا صراعها، هو الموقف الذي ينسجم مع روح هذا العصر الذي قطعت فيه البشرية شأواً بعيداً في تقنين الضوابط التي تحكم علاقات الأفراد والجماعات، وعلاقات الأمم والشعوب بعضها مع بعض. ففي ظل القانون الدولي لا يبقى للصراع بين الثقافات والحضارات مدلول، إلا أنه يكون خروجاً على ما اتفقت عليه الإرادة الإنسانية في هذه المرحلة من التاريخ، وهو ما يتمثل في الشرعية الدولية على أساس التعاون والتعايش والعمل المشترك من أجل إقرار الأمن والسلم في العالم.

● معالم الخريطة الثقافية العالمية:

إن المتأمل في تضاريس الخريطة الثقافية في عالم اليوم، يتبين له أن معظم الثقافات المعاصرة، إما أنها نبتت من التراث اليوناني والروماني، أو امتزجت بتعاليم المسيحية

واليهودية المحرفة التي وصلتها، أو انبثقت عن تراث الشرق القديم القائم على تعاليم البوذية والزرادشتية. وتشارك الثقافة الغربية الليبرالية مع الثقافة الغربية والشرقية الماركسية (حتى بعد انهيار الماركسية) في الاستناد إلى التراث اليوناني والروماني. وفي الجملة فإن منظومة الأفكار الثقافية الكبرى التي تسود معظم العالم المعاصر، تعود في أعماقها وجذورها إلى تراث أثينا وروما القديم. وهو كما نعلم تراث وثني لا يمت إلى تعاليم السماء بأدنى صلة.

إن معظم الثقافات السائدة في هذا العصر تعبر بصورة متعددة عن روح الحضارة الغربية الحديثة التي تتسم بالتركيز الشديد على التكنولوجيا (باعتبارها أداة للتحكم)، بدلاً من التركيز على التفسير وتوسيع نطاق التفاهم والتواصل بين الناس. ولكل هذا تم تهميش الاتجاهات التأملية والنقدية والجمالية في النفس البشرية. وهذا التركيز الأحادي (الذي هو في جوهره سيادة للعقل الأداة) يعني أن الإنسان لا يستخدم كل إمكاناته الإنسانية (النقدية والجمالية.... إلخ) في تنظيم المجتمع، ويركز على الترشيح على هدى متطلبات النظم الإدارية والاقتصادية والسياسية التي يفترض أنها ستزيد من تحكمه في الواقع. ويؤدي كل هذا بالطبع إلى ضمور حياة الإنسان، ويصبح الترشيح هو «استعمار عالم الحياة».

وهكذا فإن معظم الثقافات المعاصرة تمتد جميعاً من نبع الحضارة الغربية الحديثة التي نحت الدين من الحياة، وأبعدته عن الفكر والأدب والفن والعمل الثقافي والإبداعي على وجه الإجمال. فالحضارة الغربية حضارة تكنولوجية تعلي من قيم المنفعة والكفاءة والإنجاز والتقدم مهما كان الثمن المادي والمعنوي المدفوع فيها، وترى أن البقاء للأصلح والأقوى دائماً، وتهمل كثيراً من القيم التقليدية، مثل البر بالضعفاء، والشهامة، والتقوى، ومساعدة الآخرين. أي أنها حضارة لا تعرف الرحمة تنتج ثقافات لا ترحم.

وفي خضم هذه الأمواج المتلاطمة من الثقافات، تكتسب الثقافة العربية الإسلامية طابعاً بالغ التميز، لأنها، ومهما يكن من أمرها، تستند إلى النبوة ورسالة السماء ودعوة الخير ونداء الفطرة الإنسانية السوية. ولكن الثقافة العربية الإسلامية مع ذلك كله، لم تبرأ من التأثير بثقافات العصر، وقد يبلغ هذا التأثير أحياناً، حداً يتفاوت بعداً وقرباً من الجذور والأصول. ولكن في معظم الأحوال، يفقد هذا التأثير في جانبه السلبي الثقافة العربية الإسلامية قدراً من خصائص هويتها.

● حوار الثقافة العربية مع الثقافات الأخرى:

في ظل غبار هذا المعترك الثقافي الذي يفرض الصراع فرضاً، والذي يقهر في أعماق الإنسان إرادة الخير والمحبة والجمال، تتجلى ضرورة تعزيز علاقات الحوار والتواصل بين الثقافات والحضارات والأديان السماوية، حفاظاً على البقاء والتعايش بين شعوب العالم. ففي الوقت الذي تهيمن فيه ثقافة السوق والسلع والاستهلاك المادي، يتوجب على المجتمع الدولي أن يتحرر من قيود ما يعرف بالإمبريالية الثقافية التي يفرضها النظام العالمي الجديد بقيادة محور قوة واحدة. يقول إدوارد سعيد: (يتوجب أن لا تغيب عن بصرنا الحقيقة الساطعة بأن الولايات المتحدة تحكم رباطاً متيناً حول العالم، وأن المسألة لا تعود إلى ريغان (أو كليتتون اليوم) ونفر من شاكلة (كيركباترك) فقط، بل تعتمد كثيراً على الخطاب الثقافي وعلى صناعة المعرفة وإنتاج النصوص وتسويقها. إنها باختصار لا تعتمد على «الثقافة» كميدان أنثروبولوجي عام يناقش ويحلل روتينياً في دراسات ثقافية، بل على ثقافتنا نحن بوجه الحصر).

ولكننا على الرغم من ذلك كله يمكن أن نستخلص من التجارب المريعة التي عاشتها البشرية، أن العلاقة المتحضرة التي ينبغي أن تسود بين الثقافات المعاصرة، هي علاقة الحوار

بكل الدلالات التي ينطوي عليها. والحوار هو نقيض الصراع، لأن العلاقة الأولى تهدف إلى فهم الجانب الآخر، والتفاهم معه على أسس ثقافية أخلاقية منطقية، أما العلاقة الثانية فهي تتبنى الاقتحام والاكتماح والغزو وإلحاق الهزيمة بالجانب الآخر للهيمنة عليه.

إن الحوار بين الثقافات لا تكتمل عناصره إلا إذا توفر له شروط التكافؤ والندية والإرادة المشتركة والاحترام المتبادل، فالحوار على أي مستوى وحول أي موضوع كان، لا يكون من طرف واحد، وإنما الحوار يتم بين طرفين يملك كلاهما إرادة الحوار، وإلا كان فرضاً للهيمنة وممارسة للسيطرة التي هي المدخل إلى الغزو الثقافي.

ولقد راج في الآونة الأخيرة القول بأن الغزو الثقافي وهم من الأوهام. ونعتقد أن هذا الزعم جاء رد فعل على الغلو في افتراض الغزو الثقافي والمبالغة في الحديث عن محاذيره ومخاطره.

والحقيقة التي نستخلصها من تحليلنا لطبيعة العلاقات التي تسود الأمم والشعوب والثقافات والحضارات في هذا العصر، وفي العصور السابقة، تؤكد لنا أن الغزو الثقافي، بشقيه الإيجابي والسلبي، هو مظهر من مظاهر هذه العلاقات لا سبيل إلى إنكاره.

ولكن دعونا نمعن النظر في دلالات هذا المصطلح (الغزو الثقافي والفكري). هل الغزو، من حيث هو غزو، فعل شر دائماً؟ أم يكون فعل خير في بعض الأحيان؟

هل الغزو الثقافي والفكري مطبوع بالطابع السلبي على الدوام، أم يا تراه ينطبع أحياناً بالطابع الإيجابي؟

إن القضية - في رأينا - نسبية، يمكن أن تفهم من عدة وجوه، بحسب زاوية النظر إليها. ألم تمارس الثقافة العربية الإسلامية أوج تألقها وازدهارها، غزواً ثقافياً على العالم القديم؟ ألم يكن هذا الغزو الثقافي العربي الإسلامي غزواً مشروعاً، وإيجابياً يخدم الأهداف الإنسانية النبيلة؟

لقد تراجع الغزو الثقافي الإيجابي الذي قام به العرب والمسلمون، بعدما ضعفوا وانعزلوا وانكفؤا على ذواتهم، ولم يعد لهم نفوذ من أي نوع كان في واقع الحال، فتعرضوا للغزو الثقافي الغربي الذي اختلف في منطلقه وأدواته وأهدافه عما كان يتميز به الغزو الثقافي العربي الإسلامي من روح إنسانية وسماحة وسعة أفق.

إن الثقافة القوية هي التي تغزو الثقافات الضعيفة. والقوة هنا ليست قوة مادية فحسب تستمدّها من القدرات والإمكانات المادية التي تتوافر للمجتمع الذي تمثله، وإنما هي، إلى ذلك، قوة المصدر والدافع الروحي للثقافة، وقوة الأفكار التي تعبر عنها، وقوة الغايات التي تسعى إليها.

وهكذا تبدو لنا قضية الغزو الثقافي في نسبيتها. إن الغزو ليس دائماً شراً، إن من الغزو الثقافي ما فيه الخير، والثقافة العربية الإسلامية في هذا العصر، تواجه بضروب من الغزو، وما ينبغي أن نخيفنا هذا الوضع، أو يبيث اليأس في نفوسنا. ولكن يتوجب علينا أن نعي طبيعة العصر، وأن تعدّ العدة للدفاع عن ثقافتنا بالعمل الجاد المتحضر الهادف، وبالقدوة والمثال، وبالقدوة والأسوة الحسنة من أعمالنا ومواقفنا، وبتغيير ما بأنفسنا، بالعلم والعمل والإيمان وبالوعي الحضاري الراقي، وبالانخراط في العصر فاعلين ومؤثرين، متجاوبين ومتحاورين، فبذلك نبث الحياة في الثقافة العربية الإسلامية، ونجدد شبابها، ونوجد لها وسائل للتنافس في المعترك الثقافي العالمي.

يقول المفكر المسلم (روجيه جارودي): «في زماننا الذي يمكن فيه للبشر، من الناحية العملية، أن يقوم بتدمير البشرية، لم يعد أمامنا من خيار سوى بين (التدمير المتبادل المحقق) وبين (الحوار). ولا يمكن أن يقوم الحوار حقيقة إلا إذا اقتنع الجميع بأن هناك ما يمكن أن يتعلموه من «الآخرين».

إن الثقافات المعاصرة محكوم عليها بالحوار، بل إن مستقبل البشرية مرهون بإقامة حوار متحضر وعادل ورشيد بين الحضارات والأديان.

ولذلك فإن العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الأخرى، لا بد وأن تقوم على أساس متين من الحوار والتعايش الحضاري والثقافي، والإفادة من كل جديد نافع. إن الحوار بين الثقافات إذا قام على هذه الأسس أدى إلى ما أصبح يعرف اليوم بالثقاف، الذي هو في أدق تعريفاته، ضرب من التعايش الثقافي الراقي. وهو إحدى ثمار الحوار البناء بين البشر لتجنب وقوع الكارثة.

والحوار مسؤولية كل مثقف عاقل في هذا العصر، وفي كل عصر يقول الكاتب (مايكل كاريذر) - (Michael Carrithers): (إن الناس يعيشون بفضل العلاقات والثقافة القائمة بينهم حياة وجدانية وفكرية، والثقافة التي تعني هنا تماماً العناصر الذهنية في الأساس وأشكال المعارف والقيم التي نعيش بها وعليها أو التي تعلمناها أو ابتدعناها، لا نعقلها إلا حين يستخدمها الناس، وبالنسبة للآخرين، فالثقافات، بعبارة أخرى، تفترض مسبقاً وجود العلاقات).

إن التنوع الثقافي في ظل الوحدة الإنسانية، يحكم على البشر بالتعايش الثقافي، ويعمق مفهوم الثقاف لدرجة أصبح معها عنصراً رئيسياً من عناصر المجتمع الدولي المتحضر، وإن تنوع الثقافات ضرورة اجتماعية تاريخية، وضمان للنهوض، وإن ارتقاء حياة الإنسانية في شتى المجتمعات، وعلى مدى التاريخ، رهن بتنوع الثقافات وتفاعلها، وتباين الرؤى، وباختلاف الآراء، وبتوافر آلية اجتماعية تكفل التفاعل الإيجابي الحر.

فالإقرار بالتنوع الثقافي وكفالة حمايته صار اليوم من مبادئ القانون الدولي، فقد جاء في المادة الأولى من إعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي، أن لكل ثقافة كرامة وقيمة يجب احترامها والمحافظة عليهما، وأن من حق كل شعب ومن واجبه أن ينمي ثقافته، وأن

جميع الثقافات تشكل بما فيها من تنوع خصب، وتأثير متبادل، جزءاً من التراث الذي يشترك في ملكيته البشر جميعاً.

فإذا أراد المجتمع الدولي أن يحافظ على شرعية القانون الذي يحكم علاقات الأفراد والجماعات والحكومات، فإن ضرورة الحياة فوق هذه الأرض، وضرورة العيش في أمن وسلام، تفرضان تعايش الثقافات والحضارات والأديان وإقامة حوار جدي وهادف فيما بينها. ولا مستقبل للبشرية إذا سارت في اتجاه معاكس لذلك كله.

وفي هذا الإطار، ومن هذا المنظور، يتحتم على الثقافة العربية اليوم أن تتجانس في مضامينها، وتتكامل في مواقفها ورؤاها، وتحرك من منطلق هويتها المعبرة عن حقيقة انتماؤها ونبل مقاصدها، لتتمكن من الصمود في ميدان التنافس الثقافي الدولي، وتتفاعل مع ثقافات العصر، من موقع الندية والاقتدار، لا من موقع التبعية والانبهار.

الثقافة الإسلامية

● تعريف الثقافة الإسلامية:

■ لغة: أصل الثقافة في اللغة مأخوذ من الفعل ثقف، بضم القاف وكسرها، وله عدة معان منها:

- ١- الإدراك والأخذ والظفر، قال تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفَقَّحْتُمُوهُمْ﴾ [النساء: ٩١].
 - ٢- الحذق والفتنة والفهم، يقال: رجل ثقّف وثقّف أي أصبح حذقاً وفهماً وفتناً.
 - ٣- التهذيب والتأديب، يقال: ثقّف المعلم الطالب، أي: هذبه وعلمه وأدبه.
 - ٤- تقويم المعوج، يقال: ثقّفه تثقيفاً، أي: سوّاه وقومه بعد اعوجاج^(١).
- اصطلاحاً: لقد تباينت آراء العلماء المعاصرين في معنى الثقافة الإسلامية.

فمنهم من قال: (هي طريقة الحياة التي يعيشها المسلمون في جميع مجالات الحياة وفقاً لوجهة نظر الإسلام وتصوراته، سواء في المجال المادي الذي سميناه بالمادية أو في المجال الروحي والفكري الذي سميناه بالحضارة)^(٢).

ومنهم من قال: (هي معرفة التحديات المعاصرة المتعلقة بمقومات الأمة الإسلامية ومقومات الدين الإسلامي بصورة مقنعة موجهة)^(٣).

(١) انظر: لسان العرب محمد بن كرم بن منظور ١/ ٦٨٤-٦٨٥، دار الحديث بالقاهرة، ط ١٤٢٣-٢٠٠٣.

ومختار الصحاح محمد بن أبي بكر الرازي ٥٨-٥٩، دار الحديث بالقاهرة، ط الأولى ١٤٢١-٢٠٠٠.

(٢) دراسات في الثقافة الإسلامية د. صالح ذياب هندي ص ١٥، جمعية عمال المطابع التعاونية بالأردن، ط الخامسة ١٤٠٤-١٩٨٤.

(٣) د. رجب شهوان: دراسات في الثقافة الإسلامية، مكتبة الفلاح بالكويت، ط الخامسة ص ١١.

ومنهم من قال: (هي العلم الذي يبحث في المرتكزات الأساسية للفكر الإسلامي لبناء الذات ومواجهة التحديات المعاصرة)^(١).

ومنهم من قال: (هي مجموعة من المعارف والأفكار والقيم التي تنبعث عن العلوم الإسلامية الكبرى كالعقيدة والتفسير والفقه والحديث والتي تفاعلت مع البيئات الإسلامية على مر الأزمنة فتكوّن منها تاريخ طويل)^(٢).

ومنهم من قال: (هي علم دراسة التصورات الكلية والمستجدات والتحديات المتعلقة بالإسلام والمسلمين بمنهجية شمولية مترابطة)^(٣).

* يتبين لنا من خلال التعريفات السابقة عدة أمور:

أولاً: إن تعريف الثقافة الإسلامية الأخير هو التعريف المختار، وذلك لشموله جميع التصورات والموضوعات الدينية وغيرها القديمة والمعاصرة، والتحديات المتعلقة بها.

ثانياً: إن علم الثقافة الإسلامية علم جديد لم يعرف عند السلف، لهذا تباينت آراء العلماء المعاصرين والمفكرين في تعريفه، نتيجة لاختلاف اتجاهاتهم وتصوراتهم.

ثالثاً: إن الثقافة الإسلامية علم أوجدته الأحداث والمستجدات والتحديات والدراسات المعاصرة، خاصة بعد الهجمة الشرسة التي تعرض لها العالم الإسلامي.

(١) د. أحمد العيادي: المرتكزات الأساسية في الثقافة الإسلامية، دار الكتاب الجامعي بالعين، ط الثانية ١٤٢٤ - ٢٠٠٤، ص ٢٠.

(٢) د. محمد أبو يحيى: الثقافة الإسلامية ثقافة المسلم وتحديات العصر، دار المناهج بالأردن، ط السادسة ١٤٢٦ - ٢٠٠٦، ص ٢١.

(٣) د. باسمه بسام العسلي: الشخصية الإسلامية المعاصرة، دار الفكر بيروت ٢٠٠٣ م، ص ٢٧٤.

● أهمية الثقافة الإسلامية

أولاً: بناء العقل الواعي: فقد حرص الإسلام على إعادة ترتيب العقل الإنساني فكشف الزيف عنه وحرره من الخرافة والأوهام والأساطير والجمود، وصانه مما يؤثر فيه فحرّم المسكرات والمخدرات التي تحجب العقل وتحول بينه وبين مواجهة الواقع ومعالجته^(١).

كما وجعله الميزان الذي يزن به الإنسان الأمور ويتثبت من كل أمر قبل الاعتقاد به، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أَولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

ثانياً: غرس العقيدة الصحيحة: فتوحيد الله تعالى بألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته وأفعاله هو الغاية العظمى التي لأجلها خلق الله الخلق، وهو الفارق بين الموحدين والمشرّكين وعنه يسأل الناس يوم القيامة، وعليه يقع الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة^(٢).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

(١) انظر: الثقافة الإسلامية مفهومها مصادرها خصائصها مجالاتها د. عزمي طه السيد ص ٧٠، دار المناهج بالأردن، ط الرابعة ١٤٢٣ - ٢٠٠٢.

(٢) انظر: دعوة التوحيد محمد خليل الهراس ص ٧٤، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى

ثالثاً: بناء الشخصية الإسلامية: فقد حرصت الثقافة الإسلامية على بناء الشخصية الإسلامية من جميع الجوانب النفسية والروحية والعقلية والجسدية بما يتناسب مع طبيعتها^(١).

رابعاً: التميز الإسلامي: فالثقافة الإسلامية تبث روح التميز العام للأمة الإسلامية عن غيرها، لهذا حذرنا النبي ﷺ من اتباع الآخرين خاصة أهل الكتاب من اليهود والنصارى كما في حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «لتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»^(٢).

خامساً: مواجهة الثقافة الغربية: فالثقافة الإسلامية تواجه كل التحديات والمؤامرات التي تنسج خيوطها عن طريق الغزو الثقافي لبلاد المسلمين، وبما أن الغزو الثقافي يستخدم وسائل غير عسكرية فلا بد من مواجهته من جنس وسائله.

(١) انظر: الثقافة الإسلامية ثقافة المسلم وتحديات العصر ص ٩٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه-كتاب أحاديث الأنبياء-باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٢/١٦٧ ح ٣٤٥٦، مكتبة الصفا بالقاهرة، ط الأولى ١٤٢٣-٢٠٠٢. ومسلم في صحيحه-كتاب العلم-باب اتباع سنن اليهود والنصارى ٤/٢٠٥٤ ح ٢٦٦٩-دار إحياء الكتب العربية.

● خصائص الثقافة الإسلامية

للثقافة الإسلامية خصائص تمتاز بها دون غيرها من الثقافات الأخرى، تبرز أهميتها ودورها في بناء المجتمع المسلم، وصلاحياتها لكل زمان ومكان، ونجاحها في مواجهة التحديات والمستجدات. وفيما يلي أهم هذه الخصائص:

أولاً: الربانية: فالثقافة الربانية هي المنسوبة إلى الرب سبحانه وتعالى، بمعنى أن مصدرها الرئيس هو الشريعة الإسلامية المتمثلة في الكتاب والسنة، وكلاهما من عند الله عز وجل وذلك لأن الكتاب هو كلام الله تعالى والسنة وحي من الله لرسوله^(١). قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم ٣-٤]. ولهذا فإن الثقافة الإسلامية تختلف عن غيرها من الثقافات الأخرى التي قامت على أسس علمانية وضعية، وتجاهلت الجانب الديني والعقدي والأخلاقي في بنائها الثقافي وفق تصوراتهم القاصرة المحدودة^(٢).

ثانياً: العالمية: إن من أبرز خصائص الثقافة الإسلامية أنها تدعو إلى وحدة الإنسانية التي تذوب فيها الفوارق القومية والعرقية وتتلاشى فيها الفواصل، فلا تفاضل بينهم إلا بالهدى والتقى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات ١٣].

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته سيد قطب ص ٥٠، دار الشروق بجدة، ط الثالثة

١٩٦٨ م.

(٢) انظر: الثقافة الإسلامية مفهومها مصادرها خصائصها مجالاتها ص ١٢٢.

ولهذا ذم النبي ﷺ التفاخر من تفاخر بالأحساب والأنساب ودعا إلى العصبية فقال كما في حديث جندب بن عبد الله البجلي: «من قُتل تحت راية عُمَيَّة يدعو عصبية أو ينصر عصبية فقتله جاهلية»^(١).

وأكبر دليل واقعي على عالميتها أن الذين ساهموا في نشرها والعمل بها كانوا من المسلمين على اختلاف بلدانهم وأقطارهم ولغاتهم، وهي عالمية لأنها تلائم فطرة الإنسان دون تصنيف.

ثالثاً: الشمولية: وذلك لأنها شاملة لجميع جوانب الحياة، قال تعالى:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾

[النحل: ٨٩].

واستطاعت أن توفق بين روح الإنسان وجسده وبين فرديته وجماعته وبين دنياه وآخرته، فلا تنشط سريره وحياته أشطاراً مختلفة كما هو الحال في الثقافات الأخرى^(٢). قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، وأساس الشمول والكمال هو الإسلام بمناهجه المتعددة في العقيدة والشريعة ونظم الحياة^(٣).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه-كتاب الإمارة-باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين

٣/١٤٧٨ ح ١٨٥٠، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.

(٢) انظر: المرتكزات الأساسية في الثقافة الإسلامية ص ٤٤.

(٣) السلام العالمي والإسلام سيد قطب ص ١٣، دار الشروق بجدة، ط السادسة ١٩٨٢ م.

رابعاً: الوسطية: وذلك في تجسيدها للعقيدة والشريعة، وفي نظرتها للفرد والمجتمع، وفي فهمها للواقع ومتطلباته، فلا إفراط ولا تفريط^(١).

وذلك لأن الثقافة الإسلامية ربانية موحى بها من الله تعالى وهو اللطيف الخبير بما يصلح ويناسب عباده، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، ولأن مصدرها القرآن الكريم الذي يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩] فسمّة الإسلام الأساسية هي التوازن والاعتدال في كل نواحي الحياة، الاعتدال بين حقوق الجسد وأشواق الروح، وبين مطالب الدين والدنيا^(٢).

خامساً: الواقعية: وذلك بتعاملها مع الحقائق الموضوعية ذات الوجود الحقيقي الثابت، لا مع تصورات عقلية مجردة ولا مثاليات لا وجود لها في عالم الواقع^(٣).

ولهذا نجد الواقعية في التشريع الإسلامي، فقد راعى الإسلام ظروف الناس وحياتهم واحتياجاتهم المعيشية، ورفع عنهم المشقة والحرج، بل جعل المشقة تجلب التيسير، كما وراعى فطرتهم وطاقتهم فلم يكلفهم من العمل ما لا يطيقون، لأن شرط التكليف القدرة على فعل المكلف به، فما لا قدرة للمكلف عليه لا يصح التكليف به شرعاً^(٤). ونجد الواقعية أيضاً في الأخلاق والعقيدة.

(١) انظر: الثقافة الإسلامية مفهومها مصادرها خصائصها مجالاتها ص ١٢١.

(٢) انظر: العبادة في الإسلام د. يوسف القرضاوي ص ١٧٩، مؤسسة الرسالة بيروت، ط الثامنة ١٩٨١ م.

(٣) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ١٩٠.

(٤) انظر: الموافقات في أصول الأحكام إبراهيم بن موسى الشاطبي ٧٦/٢، تحقيق محمد محي الدين،

سادساً: الاستمرارية: فهي ثابتة ومستمرة لأنها تقوم على العقيدة، والعقيدة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ولا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، ومع هذا فهي مرنة لا تقف جامدة أمام الحوادث والمستجدات بل تتعامل مع القضايا الطارئة في كل عصر. لهذا فإنها تبعث الطمأنينة في حياة الفرد والمجتمع، بأنه لا يعيش ثقافة تتأرجح وتتغير حسب الأهواء والأجواء والمصالح. فقد ختم الله تعالى بالإسلام الشرائع والرسالات السماوية كلها، وأودع فيه عنصر الثبات والخلود والمرونة والتطور معاً، وهذا دليل على صلاح هذه الثقافة لكل زمان ومكان^(١).

مطبعة المدني بالقاهرة.

(١) انظر: الخصائص العامة للإسلام د. يوسف القرضاوي ص ٢٠٣، مكتبة وهبة بالقاهرة.